مولانا الشيخ محمد عادل الربّاني

من الثراء إلى حافي القدمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. الصلاة والسلام على رسولنا محمد سيد الأولين والآخرين. مدد يا رسول الله، مدد يا ساداتي أصحاب رسول الله، مدد يا مشايخنا، دستور مولانا الشيخ عبد الله الفائز الداغستاني، شيخ محمد ناظم الحقاني، مدد. طريقتنا الصحبة والخير في الجمعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ

صدق الله العظيم. يقول الله عز وجل، اتركوا هؤلاء الناس يأكلون، يلعبون، يرقصون في هذه الدنيا، ويجمعون الأموال. إنهم يتوهمون -وهو وهمٌ باطل- أنهم سيجدون السعادة في ذلك. هذا بالضبط ما نراه في عالمنا اليوم؛ فالجميع لا يسعون إلا وراء الدنيا، متسائلين: كيف يمكنني تحقيق سعادتي؟ سواء بالمال، أو الذهب، أو السيارات، أو النساء، أو أي شيء آخر. هذا هو جلّ تفكيرهم، لا سيما في هذا البلد؛ حيث يزداد هذا الأمر حدةً. لماذا؟ لأنهم يملكون المال، ويظنون أن المال هو السعادة، بينما هو في الحقيقة ليس كذلك. ومع ذلك، يظلون في بحثٍ دائم "كيف نصبح أكثر سعادة؟ ربما إذا اشترينا منزلاً أغلى، أو سيارةً أغلى، أو اقتنينا أحذيةً وملابسَ باهظة الثمن، أو تناولنا أطعمةً فاخرةً ومكلفةً". هذا هو كل ما يشغل بالهم.

.

هذا لا يمت بصلةٍ إلى الكيفية التي يجب أن يكون عليها الإنسان؛ فالله ﷻ منح الإنسان عقلاً ليفكر، ليُميّز بين الخير والشر. الحيوانات لا تدرك ماهية الخير، بل تقتصر غايتها على البحث عما تأكله فحسب. أما الإنسان، يجب أن يكون أسمى من ذلك؛ إذ عليه أن يدرك الحقيقة. يقول الله ﷻ "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا". لم نخلقكم لهذا الغرض؛ أي للعب، أو للسعي وراء إرضاء نفوسكم، أو لتصبحوا عبيداً لنزوات النفس وما تمليه عليكم. كلا، لم يخلقكم الله عز وجل لهذا. لقد خلقكم ﷻ للسعادة، وهو ﷻ قد بيّن لكم ماهية هذه السعادة. "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ". إن الله ﷻ يدعو الناس إلى السعادة، إلى "دار السلام". والسلام هنا يعني السعادة، وهو ليس كـ "السلام" الذي يتحدث عنه الناس في هذه الدنيا. كثيرون يتحدثون عن السلام، لكنهم لا يفعلون شيئاً لتحقيقه. فإذا فعلتَ ما يريده الله ﷻ، فستنال السعادة وتعيش في سلام.

.

أما إذا كان همُّك منصباً على هذه الدنيا -ظناً منك أنك ستصبح أكثر سعادة إذا اشتريت شيئاً ما- فاعلم أن هذا لا ينتهي أبداً؛ فكلما أعطيتَ نفسك ما تطلبه، ازدادت رغبتها في المزيد. لرغبات النفس لا نهاية؛ فهي لا تفتأ تطلب المزيد والمزيد. بل إنها تطمح لأمر آخر أيضاً: ألا يشبهها أحدٌ في شيء. فعندما ترى شخصاً آخر، تقول "عليّ أن أسرع لأمتلك شيئاً أفضل؛ يجب أن أحصل على هذا الشيء! فلان أو فلانة امتلكوا هذا، وأنا أملك المال وكل شيء، لذلك يجب أن أكون متفردة ومتميزة". "حتى لا يستطيع أحدٌ غيري الوصول إلى ما وصلتُ إليه". لقد رأيتُ هذا كثيراً. ففي زيارتي الأولى إلى باريس، دخلنا متجراً باهظ الثمن للغاية، وعرضوا علينا بضائع -صغيرة كانت أم كبيرة- بأسعار لم أسمع بمثلها من قبل! حينها أدركتُ أن هؤلاء الناس يقصدون

مولانا الشيخ محمد عادل الربانى

هذا المكان للشراء، ليس لأن السلع ذات فائدة -فهي في الواقع عديمة الفائدة تماماً- بل لأنهم يريدون اقتناء أشياء لا يستطيع غيرهم شراءها؛ فهم وحدهم القادرون على امتلاكها. يكفي أن يقول المرء "لقد اشتريت من هذا المتجر، إنه متجر باهظ الثمن". وبالنسبة للناس العاديين -ناهيك عن الفقراء الذين لا يستطيعون الشراء منه- فإن حتى عامة الناس لا يقدرون على الشراء من هذا المكان. ومع ذلك، تجد أحدهم يقول "يا لسعادتي! أيتها النفس، هل أنتِ سعيدة الآن؟". فتجيبه النفس "لا، عليك أن تشتري المزيد! ابحث عن شيء أغلى من هذا واشترِه؛ ابحث عن الأغلى، وأنفق المزيد من المال على هذه الأشياء (العديمة الفائدة)". إنهم لا ينفقون فلساً واحداً في سبيل الله عز وجل، لكنهم في سبيل إرضاء نفوسهم ينفقون كل ما يملكون. هكذا حال الناس في هذه الأيام؛ إنهم يتبعون نفوسهم بشكل مفرط. ولو أنهم تحرروا من سيطرة هذه النفس، لنالوا السعادة الحقيقية.

.

كان العديد من أولياء الله يسلكون في البداية طريقاً خاطئاً، ثم هداهم الله ﷻ فصاروا من كبار أوليائه. وممن أذكرهم بشر الحافي؛ فقد زرنا مقامه في بغداد العام الماضي. كان في شبابه، وكانت عائلته ثرية جداً، وكان له صديق -صديق سوء-، وهذا أسوأ ما قد يبتلى به المرء؛ لذلك يجب على الجميع الحذر من أصدقاء السوء. لا تصاحبوهم. انصحوهم، فإن استجابوا، فلا بأس، وإن لم يستجيبوا فابتعدوا عنهم. كان لبشر صديق سوء، وبحكم ثرائه كان قادراً على فعل كل شيء، من الخروج واللهو وشرب الخمر. وفي إحدى المرات، وبعد أن عاد من شرب الخمر، خلد إلى النوم. فجاء أحد الأولياء وطرق بابه. فتح الخادم الباب، فقال له الرجل "قل لسيدك أن يترك هذا الصديق السيئ وهذا الطريق المعوج، وأن يعود إلى الله ﷻ". دخل الخادم وأبلغ سيده، فسأله "من قال هذا؟". فأجابه "رجل صالح طرق الباب وقال ذلك". فخرج بشر مسرعاً يلحق به، فأعاد عليه الرجل قوله "لا تصاحب هذا الصديق السيئ". فتاب بشر إلى الله وعاد إلى الصلاة. وبعد فترة وجيزة، عاد ذلك الصديق -الذي كان بمثابة شيطان- ليغويه، فعاد بشر تدريجياً إلى شرب الخمر ومصاحبة ذلك الصديق. وفي إحدى المرات، وبينما كان يشرب الخمر، خرج إلى الطريق فوجد ورقةً كُتب عليها اسم الله ﷻ. ونظراً لهطول المطر، كانت الأرض موحلة، فأخذ الورقة ونظفها بعناية فائقة، ثم وضعها على رأسه، وعطّرها بطيبٍ حسن، وعلّقها في غرفته. وفي تلك الليلة، رأى رجل صالح في منامه رؤيا تضمنت خطاباً من الله ﷻ. يقول الله ﷻ "أخبر هذا الشاب بأنه قد رفع اسمي، وأنا بدوري أغفر له وأرفع قدره؛ في حضرتي الإلهية في مقامٍ رفيعٍ وعالٍ". فذهب إليه ونقل له هذه الرسالة، فأخذ الشاب يبكي بكاءً شديداً، ثم قال "منذ اللحظة التي أخبرتني فيها بهذا من الله ﷻ، سأكون على هذه الحال؛ لن أحمل معي شيئاً، وسأمضي في سبيل الله وحده". وهكذا ترك كل شيء وانطلق حافياً -أي بلا حذاء-، ومن هنا جاء لقبه "الحافي". لقد قضى حياته كلها حافي القدمين، وكان يقول "في اليوم الذي تصالحتُ فيه مع الله ﷻ كنت حافياً، والآن أشعر بالحياء أن أرتدي حذاءً". لقد ترك كل شيء فنال السعادة، وصار سلطان الآخرة. ويوجد قبره الشريف (مزارُه) في بغداد. لقد هدى الله على يديه الآلاف من المريدين، فأدخلهم في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، في الطريقة والشريعة، فكان سبباً في هدايتهم. وهذا هو عين ما نسعى نحن أيضاً للقيام به.

مولانا الشيخ محمد عادل الربانى

.

الحمد لله، هنا أيضاً - بالطبع، هذا أغلى مكان في العالم. الحمد لله، إن شاء الله، لا ينبغي لهؤلاء الناس - أنتم وأبناؤكم وغيركم - أن يبحثوا عن هذه الأمور. يجب ألا يقولوا "هذا كان لأبي، هذا كان لأمي، هذه كانت أرضنا، وهذه لم تكن أرضنا". كلا، فهذا ليس مهماً. المهم هو أن تمتلكوا أغلى شيء على الإطلاق: أن تكونوا ذوي مكانة رفيعة في الحضرة الإلهية لله عز وجل. قال تعالى "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ". صدق الله العظيم. فالشخص ذو المكانة الرفيعة، الأكثر قبولاً في الحضرة الإلهية لله ﷻ، هو من كان أكثرهم قرباً منه ﷻ، وأكثرهم طاعةً له ﷻ، ومحبةً لنبيه صلى الله عليه وسلم، محبةً للصحابة، ولأهل البيت، وللمشايخ، وللمؤمنين. هذا هو الشيء الثمين حقاً، وليس ما ترونه هنا. لم أرَ في بلادنا قط مثل هذا الثراء - ثراء الدنيا - كما هو الحال هنا؛ ربما لا يوجد مثله في أي مكان آخر في العالم. لكن، لا قيمة لهذا كله على الإطلاق. كان مولانا الشيخ يقول أشياءً تجعل الناس يضحكون ويتفكرون في آنٍ واحد: انظروا إلى هذه المباني الضخمة، ماذا حلّ بها؟ لقد مات صاحبها. خذوا هذا الرجل الذي توفي، وانقلوا جثمانه عبر المصعد بعيداً عن أعين الناس، وغطّوه بشيء حتى لا يراه أحد. أخرجوه من هنا بسرعة، حتى لا يراه أولئك الذين يلهثون خلف الدنيا، فيعتبروا ويتعظوا بهذا المشهد. لقد توفي مالك هذا المبنى الضخم. فما الذي جناه من ذلك؟ هل نال أي فائدة؟ هل يمكن لمبناه الكبير، وأمواله الطائلة، وكنوزه العظيمة أن تمنحه مزيداً من العمر؟ كلا؛ فقد انتهى كل شيء. في تلك اللحظة، لا يبقى صوت، ولا نَفَس، ولا أي شيء؛ ينتهي الأمر برمته.

.

لذلك، تُعدّ هذه المدينة مثالاً جيداً للمؤمنين، كي لا ينشغلوا بالدنيا. فلا ينبغي للمرء أن يوحي للآخرين بأنه سعيد بهذه الدنيا؛ بل لا تفرحوا بها، بل اجعلوا فرحكم بالآخرة، إن شاء الله. بارك الله فيكم، وحفظكم الله، وحفظنا جميعاً. عليكم أن تستخدموا الدنيا من أجل الآخرة؛ فإذا فعلتم ذلك، فإنكم تنقلون هذا البناء وما فيه إلى الآخرة. أما إن لم تفعلوا، فستتركونه هنا ليأخذه غيركم. وكما كان هذا المبنى في حوزتكم، سيؤول في النهاية إلى غيركم. نسأل الله ﷻ أن يحفظنا، وأن يرزقنا من الخير ما نستعين به على مساعدة الآخرين وخدمة الإسلام، إن شاء الله. وإلا، فلا حاجة لنا به، إن شاء الله. نسأل الله أن يبلغنا زمن سيدنا المهدي عليه السلام؛ فحينها سترون من الثراء ما لا يُقارن بما نراه اليوم. ومن الله التوفيق. الفاتحة.

مولانا الشيخ محمد عادل الحقاني
1 تشرين الثاني 2026/ 21 جمادى الأولى 1448
الزاوية النقشبندية العليّة – بيشون، سنغافورة